

المحاضرة (٨)

روافد شوقي الثقافة

حين دفع بشوقي إلى التعلم في سنة الرابعة، كان يضيق بالكتاب الذي اضطر إليه ولكنه ما لبث أن انتقل إلى مدارس المدينة. لينتهي منها في سن مبكرة ويلتحق بالحقوق فيخرج في قسم الترجمة فيها عام ١٨٨٩ وعلى الرغم من دخوله مدرسة الحقوق، إلا إنه كان في الفترة نفسها يدرس الادب على الشيخ حسين المرصفي- أستاذ البارودي- وصاحب كتاب الوسيلة الأدبية فدرس عليه كتاب (الكشكول) لبهاء الدين العاملي كما قرأ شعر البهاء زهير واتصل بالشيخ حفني ناصف وتلمذ على يديه مدة سنتين.

ومن هذا يبدو أن ثقافة شوقي ابتدأت بما قامت عليه ثقافة البارودي وحافظ، وفي هذا يتحدد خطه الثقافي منذ بداية حياته، ويتضح ذلك من اعجابه وتأثره بمجموعة من الشعراء العباسيين في مقدمتهم البحتري والمتنبي، فأخذ عن البحتري جمال الموسيقى ودقة التصوير وصفاء الخيال، وأخذ عن المتنبي وأبي تمام احتفالهما بتوليد المعاني، وشيوع الحكمة، وقوة التركيب، وأعجب بخمريات أبي نواس وغزلياته، وهكذا يقيم شوقي ثقافته على قاعدة متينة من تراث أمته الشعري، وراح يشحذ همته ليجري على ما جرى عليه هؤلاء الشعراء وغيرهم.

والواقع أن ثقافة شوقي البعيدة الاطراف المنوعة الاتجاهات، تجعلنا نصنفها إلى الأصول التي تنتمي إليها، فتأثره بالشعراء الذين ذكرناهم يدل على ثقافته الادبية والشعرية الواسعة العميقة.

ومما يمتلكه من معجم شعري ثري، يظهر في سيطرته على بناء البيت وتنسيقه وتهذيبه، وقدرته الفذة على اختيار الالفاظ. وبناء العبارات، يشير إلى تمكنه في اللغة وسيطرته عليها.

أما ثقافته التاريخية، فتبدو من خلال موضوعاته المسرحية التي استنبط مادتها من التاريخ المصري القديم، الذي يبدو في مسرحيتي كليوباترا وقمبيز. وثقافته في التاريخ العربي والإسلامي تدل على امتلاكه للحس التاريخي. ويبدو هذا من خلال مسرحية ليلي والمجنون ومسرحية عنتره ومسرحية أميرة الاندلس، وملحمة (دول العرب وعظماء الاسلام) كما يتضح في مدائحه النبوية المعروفة.

أما قصائده التي اعتمدت على تاريخ الفراعنة، فتدل على سعة اطلاعه على تاريخ مصر القديم وتمكنه منه.

هذا كله في الثقافة العربية، فإذا تحولنا عنه إلى الكلام على ثقافته الأوربية وخاصة الفرنسية منها، تأكد لنا عمقها في أدبه، فقد قرأ الافونتين وموسيه ولآمرتينو كورنيه، وتأثر العديد منهم، إذ تأثر لافونتين في نظمه الشعر على لسان الحيوان، وأعجب بشعر لآمرتين في الطبيعة، وترجم له قصيدة (البحيرة) الشهيرة. لكن أشد الشعراء تأثراً فيه هو فكتور هوجو- زعيم

الرومانتيكية دون منازع- الذي تأثره في شعره الوطني، ولربما سار على نهجه في استلهام التاريخ المصري القديم.

أما شكسبير فيبدو أنه تأثره بخاصة في مسرحية كليوباترا.

ومما له صلة بثقافته ، تأثره ببعض المذاهب الادبية التي شاعت من قبله وفي زمانه والتي بدأ أنه تأثر ببعضها تأثراً مباشراً وخاصة في مسرحياته، فقد كان للمذهب الكلاسيكي والرومانتيكي على الخصوص تأثيرهما في تلك المسرحيات.

وفيما عدا الفرنسية، كان شوقي يعرف التركية، لكن أثرها لم يتضح في شعره وعلى الرغم من اتساع ثقافته الاجنبية، فلم تتصل هذه الثقافة لديه إلا بما ينسجم مع روحه المحافظة وتياره الكلاسيكي، ولو كان قد اتصل اتصالاً شديداً بالثقافة الفرنسية بين أدبنا الحديث المتمثل بجهوده هو وبين الادب الفرنسي، ولكنها كانت جسوراً واهية لا تمتلك القوة. ولقد المح طه حسين إلى هذه الناحية حين قال (وكذلك كان تجديد شوقي متأثراً بهذا الخط من الثقافة الفرنسية، أي أنه كان يتأثر بالقديم الفرنسي أكثر مما كان يتأثر بالجديد)⁽¹⁾.

تلك كانت روافد شوقي مع ثقافته الواسعة، واتجاهاتها البعيدة المختلفة، وهي مهما كانت في جانبها الادبي فقد حققت لصاحبها مجده الادبي، خصوصاً في تلك الفنون التي لم يألفها أدبنا من قبل، وكان لشاعرنا فضل ريادتها.

ميادين الشعر:

مرت حياة شوقي بثلاث مراحل مختلفة، تباينت معها ظروف حياته، فمن أجواء القصر إلى حياة المنفى، وأخيراً إلى صفوف الشعب.

وانعكست ظروف كل مرحلة في شعره انعكاساً يميزه مما قبله، ويفصله عما بعده وشعر شوقي - كما اسلفنا- كان رهن ظروفه المختلفة التي أثرت في موضوعاته ومعانيه ولفته وحتى في صدقه الشعوري والفني. فقد وقف شعره في مرحلة القصر على انواع من المدائح وعلى الشعر التاريخي والوصف والغزل والخمرة، بينما لهج الشاعر بموضوعات جديدة ومعان مبتكرة، تميزت بأسمى معاني الصدق الشعوري والفني في موضوعات التعبير عن الغربة والحنين إلى الوطن، وفي استلهام التاريخ العربي والإسلامي في الأندلس.

وحين رجع الشاعر من المنفى- لم يعد بحاجة إلى المدائح والغزل والخمرة، لأنه بات يعبر عن أمل الملايين من المصريين والعرب، يصور احلامهم ويجسد أمانيتهم، ويقف معهم في افراحهم وفي حزنهم وبهذه وبتلك صار شاعر الشعب. أن هذه المراحل الثلاث، قد سهلت على الدارسين دراسة شعره، لأن كل مرحلة يختلف عنه في المرحلتين الأخيرين.

(1) حافظ وشوقي/ ٢٠١.

وعلى هذا نقيم دراستنا لشعر شوقي، لكن الذي يعترضنا هو ضخامة هذا الشعر، وتتنوع قصائده من ناحية الاجناس الفنية، مما لا يتيح لنا دراسته دراسة مفصلة. ولذلك آثرنا أن نقف في كل مرحلة على واحدة من هذه المواضيع المهمة، ملمين بمواضيعه الأخرى المامة سريعة وحسب.

اختصت مرحلة القصر الطويلة بموضوعات معينة، يعتمد أغلبها على احتذاء القديم كالوصف والغزل وشعر الخمرة، ومدخ الخديويين ، كما تضمنت العديد من المدائح النبوية، وما يلتقي معها في فكرة العقيدة، كالشعر الإسلامي الذي تحدث عن الخلافة الإسلامية، وشعر العقيدة الدينية.

ويبرز في هذه المرحلة ما يمكن أن يسمى بالشعر الوطني، الذي يستمد مادته من تاريخ مصر القديم، والذي يدل به على ما كان له من حضارة عريقة، كما يهدف إلى النزوع إلى التحرر، وإلى استنهاض الهمم، واستنفار المشاعر الوطنية، قصداً إلى بث روح الاستقلال. والشعر التاريخي الذي أولاه شوقي اهتماماً خاصاً في هذه المرحلة، يضع صاحبه في موقع الريادة بالنسبة للشعر الوطني، كما أنه يجسد الحس التاريخي الذي تميز به دون غيره من شعراء جيله.

وإذا كانت قصائده في الغزل والخمرة وفي كثير من المدح ضعيفة ينتابها فتور عاطفي، وأنها كانت تجري في طريق شعرنا القديم، فإن موضوعاً آخر كالشعر الديني قد توافر على قدر كبير من الصدق الفني والصدق الشعوري، وخيال طليق وبناء محكم ويتصور بارع وموسيقى صافية، وكان صاحبها صادق الاحساس عميق الشعور حار العاطفة وقد تغنى في هذه المدائح بشخصية الرسول الاعظم 6 وباهى الامم بأخلاقه وعظمته وجهاده وسلوكه، وفي مقدمتها (نهج البردة) و(الهمزية النبوية) و(ذكرى المولد) والقصيدتان الاوليان يعارض فيها البوصيري. وتعد هذه القصائد من قمم الشعر الديني.

وعلى الرغم من أن شعر شوقي الإسلامي كان تجسيداً لفكرة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها العثمانيون، إلا أنه من جانب آخر كان تعبيراً عن حسه الديني ونزعتة الإسلامية التيس تأصلت بذورها في نفسه.

وروعة هذا الشعر، لا تقف عند حد هذه المدائح، وإنما تقوم على قدرته المتميزة في الاطاحة بشؤون الحياة الإسلامية العربية؛ إذ لم يترك الشاعر مجالاً من مجالاتها إلا وصوب إليه فنه، فقد بحث في موضوع الخلافة الإسلامية، ودعا إلى وحدة المسلمين، وناقش معضلة الموت، وبعث الإنسان ونشور الحياة، ومس قضية الأخلاق، وعالج مشكلة الحجاب والسفور، وبحث مسألة المساواة في حق الحياة وفي حق الشعوب في الحرية، ودعا إلى الجامعة الإسلامية وتوجه إلى الشباب بخاصة ورثى الوطنيين الاحرار.

وفي الشعر الإسلامي دخلت الفاظ جديدة، ومعان مبتكرة، وصور ناضجة مستمدة من الفكر الإسلامي.

وفتحت القصيدة الدينية لشوقي منافذ جديدة للملحمة الدينية والمعارضة الشعرية، التي تألق فيها تألقاً ملحوظاً. وملئت القصيدة الدينية بالأفكار الجديدة التي نهضت بالمثل الإنسانية من مثل الحديث عن حرية الانسان والمساواة في الحقوق وإصلاح المجتمع، والدعوة إلى الأخلاق والمثل الحميدة^(٢).

وتقف قصيدة (كبار الحوادث في وادي النيل) في طليعة شعره التاريخي. وقد استعرض فيها تاريخ الحضارة المصرية منذ القديم حتى وصل بها إلى عهد الخديويين. وهي أشبه بالملحمة الوطنية، حتى عدها شوقي ضيف (أم ديوانه الأول).

أما قصيدته الثانية (النيل) والتي تمثل درة ديوانه الثاني فهي في نظرنا تعلق قصيدته الأولى، لأن شوقي قد اعتمد بناءها بالصور النابضة بالحركات والخطوط والالوان، وغير ذلك من عناصر الصور الشعرية الناضجة.

والقصيدة طويلة مؤلفة من مائة وثلاثة وأربعين بيتاً، يتحدث فيها شوقي عن تاريخ مصر الطويل منذ عهد الفراعنة، وما شادوا من بناء سامق عظيم، ويقف على إهرام مصر وعظمتها، وسموها وخلودها، ويشدو بمواكب انتصارات الفراعنة، وما حققوه في هزيمة الملوك والعظماء، ويتحدث عن طقوسهم الدينية، وتقديمهم لنواميسها فيشيد بحضارتهم العظيمة، ويستمد من الكتب المقدسة صور قصص الانبياء في لوحات تصويرية أخاذة.

وقد ركز في قصيدته هذه على الاسطورة (عروس النيل) التي صارت فداء لنهر النيل العظيم على مدى الاجيال، ويرى ان هذا النهر العظيم مهد الحضارات والاديان. ويفتح القصيدة بقوله مخاطباً إياه بقوله:

ما أي عهد في القري تترقرق وبأي كف في المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقرق

والواقع إن عظمة هذه القصيدة، تأتي من اعتماد بنائها على الصور الجزئية التي ينمو بعضها من بعض في وحدة موضوعية متكاملة، تكاد تشكل بعض مقاطعها ، وحدة عضوية إذ يأخذ بعضها بعناق بعض عبر أفكار مسلسلة يربطها خيط فكري متين.

(٢) للاستزادة: ينظر كتاب- شوقي شعره الإسلامي / لماهر حسن فهمي.

والقصيدة تتشكل من محاور منسقة منظمة، لكن أجمل محاورها هو المحور الذي يرسم فيه شوقي صورة لاحتفال المصريين ببناء النيل، حيث تتطوع في كل سنة أجمل بنات مصر لهذا النداء، وفي هذه الصورة الكبيرة يقول الشاعر.

ونجبية بين الطفولة والصبابا
كان الزفاف إليك غاية حظها
لافيت أعراساً ولاقت مآتماً
في كل عام درة تلقي بلا
أن زوجوك بهي فهي عقيدة
زفت إلى ملك الملوك بحثها
ولربما حسدت عليك مكانها
بحلوة في الفلك يحدو فلكها
في بهرجان هزت الدنيا به
فرعون تحت لوائه وبناته
حتى إذا بلغت مواكبها المدى
وكسا سماء المهرجان اجلاله
وتلفتت في اليم كل سفينة
القت إليك بنفسها ونفيسها
خلعت عليك حياءها وحياتها
وإذا تناهى الحب واتفق الغدا

عذراء تشربها العقول وتعلق
والحظ أن بلغ النهاية موبق
كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهق
ثمن إليك وحررة لا تصدق
ومن العقائد ما يلب ويحمق
دين ويدفعها هوى وتشوق
ترب تمسح بالعروس وتحقق
بالشاطنين مزغرد ومصفق
أعطافها واختال فيه المشرق
يجري بهن على السفين الزورق
وجرى لغاية القضاء الأسبق
سيف المنية وهو ضلت يبرق
وانثال بالوادي الجموع وحذقوا
وأنتك شقيقة حواها شقيق
أعز من هذين شيء ينفق
فالروح في باب الضحية أليق

والذي يقرأ القصيدة قراءة كاملة دقيقة يحس أن صاحبها قد اعتمد البناء من خلال مجموعة من الصور الكبيرة التي تتشكل - كما قلنا - من صور جزئية نامية صغيرة تعتمد التنظيم والتناسق. والصور الكبيرة لا تفقد هذا الخيط، لأن عماد القصيدة هو تاريخ مصر القديم الذي يظهر في القصيدة كلها والذي يحقق منها ما ينتظمها من عقائد دينية وأفكار على سذاجتها في منظور هذا العصر، فهي مقدسة، وتقاليدها محترمة. والقصيدة تظهر معرفة شوقي بتاريخ أمته معرفة دقيقة، وتبدو فيه ثقافته التاريخية والدينية من خلال تعرضه لتابوت موسى وقصة يوسف وأخوته، ومريم وعيسى ونزول الإسلام. وكل ذلك يوضحه الشاعر بالصور التي تتوافر فيها قدرات فنية عالية.

وحيث ان القصيدة نظمت أساساً على نهر (النيل) فالشاعر يجابه القارئ بالحديث عنه متسائلاً عن مصدر تدفقه الذي أعيا عقول القدماء بما جعلهم يؤلهونه.

ويلاحظ في البيت الثاني محاولة الشاعر أن يوحي إلينا بعظمة النيل وسموه وعلو قدره، حين ربط تدفقه بالسماء وما فيها من جنان.

وقد أضفى على صورة تدفق النيل سحراً فنياً أخاذاً، في إشارته إلى الجداول التي تتزقزق، والتي تنتشر في فسيح الجنان. كما تلاحظ الاستعارات الجميلة، وكيف وفق الشاعر بين قافية القاف ورقفة الجداول. في بناء هندسي محكم.

وحين ننقل إلى صورة الاحتفال بالنيل، نلاحظ أن (شوقي) يضيف على عروس النيل كل ما يحببها إلينا ويشوقنا إليها. وربما توحى صورة هذه الفتاة إلى ما يحرك فينا المشاعر والعواطف، حين يقر في نفوسنا جمال هذه الفتاة ونجابتها ومواقفها في التضحية، كما يوحي إلينا بالعطف، غضارة سنها، وكونها فتاة عذراء لما تتمتع إلى آنئذ بالحياة وحيويتها، وفي هذا كله يعلي شوقي قدرها ويرفع شأنها، إذ يجعلها درة ثمينة، وزوجة حرة، تزف دون صداق.

وكل هذا يطبع فينا أقدس صورة، وأعظمها وأجلها عن (فتاة النيل) هذه، ويزيدها أهمية، أن الشاعر في البيت الثاني يشير إشارة خفية إلى الطقوس الدينية، ومكانها في نفوس المصريين القدماء، حيث جعل من تضحية (عروس النيل) بنفسها (غاية حظها) وكأن هذه التضحية تمت من الفتاة بمحض ارادتها.

ومما يؤكد هذه الفكرة، أن الشاعر كررها في أبيات تالية حيث يقول:

ولربما حسنت عليك مكانها تـرب تـمسـح بالعروس وتـحـدق

فهذه الفتاة إذن ليست ضحية العادات الاجتماعية، والأعراف الدينية عند المصريين القدماء، بل دليل إنها محسودة من قريناتها اللاتي يتمسحن بها وهن حاسدات لها على هذا الاختيار الموفق ولماذا... لأنها:

زفت إلى ملك الملوك بحثها دين ويدفعها هوى وتشوق

فالفتاة محسودة لأنها زفت إلى (ملك الملوك - النيل)، ولأن هذه التضحية مقدسة وهي دين في رقبته - ورقبة كل فتيات مصر الجميلات أما وأن الاختيار قد وقع عليها فهو مما تحسد عليه.

وقد كرر شوقي مرة ثالثة أن الذي دفع الفتاة إلى التضحية هو حبها له وشوقها إليه فهي إذن ليست مدفوعة ولا مجبرة.

في هذه الصورة يوقفنا الشاعر على معتقدها المصريين القدماء، وعلى موقفهم إزاء طقوسهم الدينية.

وشوقي في هذه اللوحة الفنية، رسام ماهر، يمتلك الدقة، لأنه لم يعتمد التصوير المادي فحسب، وإنما اعتمد التأثير المعنوي، فيما اذكاه في قلوبنا ومشاعرنا من حرارة وما رسمه من (اندفاع) و(تشوق) و(حسد) و(تضحية). وما أثار من مشاعر إنسانية عميقة في نفوسنا عن مصير الفتاة الجميلة النجيبة الغضة، لأن هذه التضحية، كانت رهن معتقدات خاطئة كان معمولاً بها لدى الشعوب القديمة، ومنها شعب مصر على عهد الفراعنة ويلاحظ أن (شوقي) - وهو ابن العصر - لم يقف متفرجاً إزاء هذه المعتقدات إذ يلوح موقفه الحضاري في هذه الصورة حين يقول: (والحظ أن بلغ النهاية موبق) وفي قوله (لاقيت أعراساً ولاقت مأتماً)، لأن غرق الفتاة وموتها تحسد عليها وهو (عرس بل اعراس) عند المصريين، لكنه (مأتم) في نظر الشاعر، لأنه في هذه (التضحية- الموت) إزهاقاً لروح بريئة.

فالشاعر إذن يتدخل في الصورة، وكأنه يعلن عن موقفه الحضاري منها.

يرى في نونية ابن زيدون ما يجسد مشاعره الرقيقة، وعواطفه الحارة، فإذا هو يبعث مثل

هذه العواطف إلى مصر في نونيته المعروفة فيقول:

لكن مصر وأن غضت على مكة
على جوانبها رففت تماننا
عين من الخلد بالكافور تسقيننا
وحول حافاتهما قامت رواقينا

إلى أن يقول:

ناب الحنين إليكم في خواطرننا
عن الدلال عليكم في أمانينا

وبعد أن كانت مصر وتاريخها بحوزان في شعره قصب السبق، صارت الاندلس قطب الدائرة في هذا الشعر، فإذا هو يأنس لها ويعجب لطبيعتها، وينحني إجلالاً لتاريخها الحافل بالامجاد. ويغيره ذلك كله، إلى أن يكتب مطولته الشهيرة (دول العرب وعظماة الإسلام) وهي أرجوزة يؤرخ فيها للامة العربية حتى نهاية العهد الفاطمي.

وتغريه الاندلس وتاريخها العظيم، فيكتب مسرحيته النثرية الوحيدة (أميرة الاندلس) من وحيها. وهذا يعني أن خروج شوقي من مصر كان نعمة على الأدب وعلى الشعر.

وعلى الرغم من أن فترة النفي هذه كانت قصيدة الزمن، إلا إنها حفلت بالانتاج الثر وكانت بمثابة فترة انتقالية في موضوع القصيدة، فبعد أن وقف شوقي معظم شعره على خدمة القصر، تحول بعد عودته من المنفى إلى التأكيد على عواطف جمهور الشعب وتجسيد آمالهم وآلامهم. والتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم. بعد أن مهدت لهذا فترة النفي هذه فمرحلة النفي أذن قد حققت تطوراً ملحوظاً في القصيدة من ناحية الموضوع، ومن ناحية التجربة. كما حققت تمهيداً لها بعد عودة الشاعر إلى مصر.

تقف معارضات شوقي في المنفي، في مقدمة الموضوعات التي عالجها، استجابة للعصر النفسي الذي عمق أثره في نفس الشاعر، لشعوره بالغربة، وحنينه إلى أرض الوطن، واستجابته للعنصر التاريخي الذي فرض نفسه على الشاعر في بيئته الجديدة. وكانت معارضة الشاعر لسينيه البحتري، توكيداً لنوعي الاستجابة اللذين ألمحنا إليهما. وتؤكد سينيته المشهورة التي يعارض فيها سينية البحتري، هذه الاستجابة، لأن الشاعر كان يجسد موقفه حين نظمها. وهو شبيه بموقف الشاعر العباسي من إبروان كسرى. فقد أثارت الأندلس، ومآثرها الحضارية والعمرانية، وحضارتها الانسانية، وربوعها العامرة، بالامجاد والعظمة. وما رآه في اشبيلية وغرناطة وقرطبة، آثار ذلك اعجابه بالامجاد الغابرة لامته العربية والاسلامية، وحنينه إلى وطنه مصر، وشوقه إلى من فيها من الأهل والاحباب كما أثار شجونه وأحزانه على مجد العرب وعزهم، وما آل إليه مصيرهم في الأندلس. وطبع قصر الحمراء في نفسه ما طبع إيران كسرى في نفس البحتري.

ويبدأ شوقي قصيدته على نحو ما بدأ به البحتري، فذكر حنينه إلى مصر التي فارقتها مضطراً، معللاً ذلك بتقلبات الدهر، ومتسائلاً عن أمجاد العرب في الأندلس، وعن آثارهم التي أبلاها الدهر، وحكامهم الذين طواهم الزمن، ويذكر آثار المسلمين، ويخص منها قرطبة التي صارت قرية مغمورة بفعل تقادم الزمن. ويذكر مجدها الذي مضى عليه ألف عام أو يزيد وزما يزال على عهده. ويحدثنا عن قصر الحمراء في غرناطة، ويتأمل ما فيه من قباب وأسود مرمرية، تنتثر الماء من حولها كالجمان، ويدل على عظمة البناء وأمجادهم وحضارتهم. ويأخذ الحزن على ما آل إليه القصر الذي يصفه وصفاً دقيقاً يدل على مهارته في فن الوصف، وعلى دقته في الملاحظة، وعلى استنباط الأشياء فيما يصف ويختتم القصيدة بالعبرات الصادقة والزفرات العميقة، ويصور بخياله البارع كيف رحل العرب عن بلادهم، تصويراً يمتزج بالمشاعر الصادقة والاحاسيس النبيلة وفي ذلك كله يرسل أنينه على ما فقده العرب فيدعوهم إلى أن يتخذوا من ذلك عبراً ودروساً ويقول :

أذكر لي الصبا وإيام انسى
أو أسى جرحة الزمان المؤسي
حلال للطير من كل جنسي
نازعتني إليه في الخلد نفسي
شخصه ساعة ولم يخل حسي

اختلاف النهار والليل ينسي
وسلا مصر سلا القلب عنها
أحرام على بلابله الدوح
وطني لو شغلت بالخلد عنه
شهد الله لم يغيب عن جفوني

ومما قاله في وصف قصر الحمراء في هذه المعارضة المشهورة.

كالجرح بين يـرء ولكس

من الحمراء جللت بغيا الدهر

من نقوش وفي عصارة درس
كالربي الشم بين ظل وشمس
ولالفاظها بأزين لبس
مقفر القاع من ظباء وخنس
يتزلن فيه اقمار أنسي
كله الظفر لبنات المجس
يتزى على ترائب ملس

نقلوا الطرف في غضارة آس
وقباب من لازورد وتبر
وخطوط تكلفت للمعاني
وترى مجلس السباع خلاء
لا (الثريا) ولا جوارى الثريا
مرمر قامت الاسود عليه
تنشر الماء في الحياض جمانا

وعلى الرغم من وجوه الشبه بين قصيدتي البحري وشوقي، فإن شوقي كما يقول الدكتور ماهر حسن فهمي لم يتأثر بقصيدة البحري إلا قليلاً، رغم كل الصلات القوية التي تربط بين القصيدتين في الموضوع والمعاني. وهذا يعني أن شخصية شوقي في هذه المعارضة قد وضحت وضوحاً تاماً انتهى بها إلى الأصالة الفنية والشعورية، وهذا ما تفصح عنه بالفعل، الأبيات الأولى التي اخترناها من القصيدة. إذ ظهرت فيها شخصية الشاعر، من خلال حنينه لمصر وأشواقه إلى ساكنيها من الأحباب والأصدقاء.

وفي الأبيات لا تتضح شخصيته وحسب، بل يتضح حسه الوطني ووجدانه القومي إذ يبقى الشاعر مشدوداً إلى ذكرياته الجميلة في طفولته وصباه، ويرسل في سبيل وطنه مشاعره الدافقة، وعواطفه الحارة، وهي أحاسيس مخزونة وعواطف مكثوا بنار الغربة، تتأسى باللحن الحزين وأوتاره الشجية.

أما الأبيات التي يصف فيها قصر الحمراء، فإنها تؤكد قدرته المتميزة في الوصف وتعكس دقته في رصد الأشكال والألوان والخطوط، وتمثلها تمثلاً فنياً يمتزج بالإحساس والشعور. ويتضح كل هذا في وصفه القباب واللازورد المحلاة بالذهب كالربي تنازعتها الشمس والظلال والأسود المرمية التي تنتشر الماء حولها كالجمان المنضد، وفي ذكره للثريا وجوانبها، كما يتضح في تشابك الصور والأشكال المنقوشة ذات الألوان المختلفة، مما يعكس براعته في الرسم الكلاسيكي الذي يعتمد الحس المنظور في رسم الأشكال والصور . وكيف لا وهذه الخطوط والأشكال تعكس صور أجداده وعقليتهم الفذة وحضارتهم السامية. وهذا يدل على حضور التجربة الفنية والشعورية لدى شوقي في شعر المنفى؛ لأنه لم يعبر عن تجربته بوحى من الخارج، كما أكدت ذلك مدائحه في القصر، وإنما عبر بما امتزج من تاريخ أمته وحضارتها، وانطبع في ضميره مما تمثله، تجربة صادقة حية، وهي تجربة وقف على مادتها في مخزون الأمة وتراثها الخالد، فصارت له معيناً لا ينضب.

وعلى هذا النمط راح شوقي ينظم معارضته للبحثري. مستفيداً من موقف الشاعر العباسي، لكنه راح يضرب في اعماق التاريخ العربي والاسلامي الخالد، ويجعل من صورته التي عفى عليها الزمن، تجارب صادقة، يقدمها لأمته الحاضرة عبراً ودروساً. غير ناس مشاعره الشخصية التي تشابكت مع صور ذلك التاريخ، وانصهرت لتجسد موقفه فيها.

ويقول شوقي ضيف، أن من يقرأ هذه القصيدة يرى أن احمد شوقي (قد حاز لنفسه ثقافة تاريخية عميقة بالاندلس وأمجاد العرب وحضارتهم ونهضتهم بقرطبة، ولم بالتعمق في قراءة تاريخ العرب في الاندلس، فقد عني أيضاً بقراءة شعرائهم ودوانيهم).

وعلى الرغم من وضوح تأثير شوقي بالبحثري في المعارضة وكما صرح هو نفسه بذلك، فإننا نرى حضوره الشخصي فيها، والذي يبدو واضحاً في مشاعره الرقيقة وأحاسيسه الدافقة التي أزجها لمصر من خلال حنين صادق اللهجة والشعور، وحس وطني وتاريخ متميز.

وهذا الحكم لا يصدق على هذه القصيدة فقط، بل هو ينسحب على معظم شعر المنفى، وهو ما يدل على تطور فكر القصيدة الشوقية في هذه المرحلة فناً وشعوراً.

في سنة ١٩١٩ يعود احمد شوقي من منفاه إلى أرض الوطن، ويحدوه الأمل في أن يأخذ دوره في مجالات الحياة المصرية والقومية والاسلامية، وقد كان له ما أراد، إذ هو يزور عن القصر. والقصر لا يفتح له الأبواب. وكأنما كان الشاعر والقصر على خلاف لا يصطلحان.

ويبدو لنا ان السنوات الاربع التي قضاها شاعرنا في منفاه بالاندلس. قد عمقت إحساسه بحب الوطن، وبدا هذا في حنينه إلى مصر الذي استقطب موضوعاته منذ أن حط قدميه على أرض الاندلس، حتى إذا انقضت فترة نفيه وعاد إلى بلده، انشأ يقول في أول قصائد العودة إلى سماها (بعد المنفى) ويعلن فيها فرحته:

ويا وطني لقيتك بعد ياسي كأنني قد لقيت بك الشبايا
وكل مسافر سيؤوب يوماً إذا رزق السـلامـة وإيابـا

وهكذا يعود شوقي إلى وطنه، ليتجه إلى الشعب، يزجيه عواطفه الحارة ومشاعره الدافقة، ويلتفت الشعب حول شاعره الذي بعث له حنينه وشوقه على مدى اربع سنوات وينعكس اثرها في شعره انعكاساً جذرياً يتجه به إلى وضعه الصحيح الذي انحرف عنه على مدى ربع قرن من الزمن. وبهذا تتجه قصائد الشاعر إلى مصر والمصريين، تغني لهم أناشيد الحرية، وتفخر بماضيهم وتؤيد مساعيهم إلى النصر

المصادر:

٢- تطور الشعر العربي الحديث في مصر: ماهر حسن فهمي

٣- شوقي شاعر العصر الحديث